علامات

على طريق فهم الواقع

أ.د. عبدالكريم بكار

علامات
على طريق فهم الواقع

أ. د. عبدالكريم بكار

الطبعة الأولى
1433 هـ - 2012م

ح/ دار وجوه للنشر والتوزيع ١٤٣٣هـ.
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
بكار، عبد الكريم محمد
علامات على طريق فهم الواقع
عبدالكريم محمد بكار. - الرياض، ١٤٣٣هـ.
٧٢ ص؛ ١٦ سم×٢٠سم
ردمك: ٤-٣٣-٨٠٦٥-٦٠٣-٩٧٨
١- الضغط النفسي ٢- الشخصية أ. العنوان
ديوي ١٥٥,٩٠٤٢ ١٤٣٢/١٠٦٨٧
رقم الإيداع: ١٤٣٢/١٠٦٨٧
ردمك: ٤-٣٣-٨٠٦٥-٦٠٣-٩٧٨

التنفيذ الفني والنشر والتوزيع

دار وجوه للنشر والتوزيع
Wojooh Publishing & Distribution House
www.wojoooh.com
المملكة العربية السعودية - الرياض
ت: 4918198 فاكس: تحويلة 108
للتواصل والنشر:
wojoooh@hotmail.com

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فإن الإنسان يظل شغوفاً بمعرفة الواقع الذي يعيش فيه والظروف التي تحيط به، وهذا الشغف له دافعان أساسيان:

الأول: اكتساب القدرة على اتخاذ القرارات الصحيحة، ولا يخفى في هذا السياق أن غنى الحياة بالكثير من الخيارات جعل عملية اتخاذ القرار في كل مجال صعبة ومربكة، كما أن التطورات والتغيرات السريعة التي نراها رأى العين في كل يوم جعلت الواقع سريع التبدل، وصار لزاماً علينا متابعته بحرص وجدية تماماً كما يفعل الذين يشتغلون بـ (الصرافة) وتبديل العملات حيث إن عليهم متابعة أسعارها على نحو مستمر، وإلا فقد يخسرون خسائر هائلة.

الثاني: الخوف من الشرور والمكائد واتقاء شر المحتالين والمخادعين الذين يموج بهم السهل والجبل، وقد عبّر عن هذا المعنى أحدهم حين قال: ((في كل دقيقة يولد مغفل، ويولد اثنان للمتاجرة به)).

إن معرفة الواقع على نحو تام تظل متعذرة حتى على أكثر الناس ذكاء واطلاعاً ودراية، وذلك بسبب التواءاته وتداخل خطوطه وشح المعلومات المتعلقة بكثير من وقائعه وأوضاعه، ومن ثم فإن الذي نحتاج إليه حاجة ماسَّة هو معرفة بعض السنن والقواعد التي تساعدنا على تلمس الواقع في حال ضعف معرفتنا به وانعدام المؤشرات التي ترسم شيئاً من ملامحه، إن من المهم أن تكون لدينا مما ذكرناه منهجية لفهم الواقع والتعامل معه حيث إن الذي يملك معلومة كمن يملك قطعة ذهبية، أما الذي يملك منهجاً فإنه كمن يملك مفتاح منجم ذهب.

وقد كتبت عبر السنوات الماضية عشرات المقالات التي تقدم إضاءات للواقع المحلي والعربي والدولي، وقد نشرت تلك المقالات في العديد من المجلات والمواقع الإلكترونية، وقد عمدت إلى اختيار ست عشرة مقالة مما نشرته أزعم أنها تقدم ملاحظات مفيدة في بناء المنهجية التي تحدثت عنها، وإني لأسأل الله ـ تعالى ـ أن ينفع بها القراء الكرام، وأن يجعلها لي ذخراً يوم الدين إنه سميع مجيب.

المؤلف

في ١٤٣٣/٢/٢٩

البحث عن الروح

قيل في عصرنا: إنه عصر السرعة والإعلام والاتصال وعصر الإلكترون وعصر الإدارة، وقيل فيه: إنه عصر الصورة والشكل، ويمكن أن أضيف إلى ذلك بأن أقول: إنه عصر التفاصيل والإضافات وعصر الزخرفة وإرضاء المزاج... كل هذا صحيح، وهو بوجه من الوجوه نتيجة مباشرة للرخاء العالمي والتقدم العلمي والتقني، وهذا شيء طبيعي، فالإنسان الذي يقود الحضارة اليوم قد فرغ من تأمين حاجاته الأساسية، ودخل في مرحلة الترفيه والبحث عن الكماليات، وهو يقود باقي الناس من الفقراء والمحتاجين إلى نفس الموقع الذي انتهى إليه، وليس توضيح هذا هو المقصود من هذه المقالة، إنما المقصود توضيح الأضرار التي يسببها الجنوح المفرط إلى الصورة والشكل وتوضيح ما ينبغي عمله لمعالجتها. إننا إذا تركنا الأمور تمضي على عواهنها من غير اجتهاد ولا وعي ولا

تدخل عملي فإن المتوقع هو سيطرة الشكل على توجهاتنا ومعاييرنا وأعمالنا، ولا أدري لماذا يحدث هذا، هل لأن الشكل يعبر عن نفسه أمام الوعي بطريقة أوضح من تعبير الروح والمضمون؟ أولأن المضي مع الشكل يتناسب مع أهواء النفوس؟ أو لأن من طبيعة التقدم الحضاري والعمراني تعزيز دور الصورة في الحسّ العام على حساب الاهتمام بالجوهر؟ وإذا صح هذا- وهو صحيح في غالب الأمر- فإن المطلوب منا هو البحث عن الروح بوصفها الشيء الذي يتعرض للفقد والانتهاك على نحو مطرد، وحتى نبحث عن الروح، فإن علينا تحديد ملامحها من خلال التركيز على المقاصد والغايات والفوائد، ومن خلال تلمس النقص الذي يحدث حين يفقد عملٌ ما معناه ومضمونة، ولعلي أوضح هذا من خلال المثالين التاليين:

١ـ تتجسد روح التدين في تلك الخيوط النورانية التي تربط العبد بربه –سبحانه-: خيوط الحب والشوق والتذلل والرجاء والخوف والحياء والافتقار والتوكل... ومن هذه الخيوط تُنسج (حلة التقوى) والتي تجعل من يرتديها يشعر بتناسق أقواله وأفعاله مع معتقده، ويشعر بتجمع جذوره النفسية، كما يشعر بمنطقية مواقفه وتصرفاته. إن جوهر التدين يشبه الماء الذي يسري في العرق الأخضر، فينعش كل ذرة فيه، وهكذا المسلم الحق يمسك لسانه، ويكف بصره، ويصون سمعه عن كل ما لا يحل له، وتراه ساعياً في الخير محباً لأهله ملتمساً لمراضي الله – تعالى- في المنشط والمكره،و حين يفقد هذه الروح تمتلئ حياته بالتناقضات وتصبح عباداته شكلية، وهكذا فإننا نرى اليوم من

يصلي في الصف الأول، ويناجي ربه وهو يأكل الربا ويأكل حقوق الناس، ولا يفكر في شيء سوى مصالحه الشخصية، كما صرنا نرى من يحرص على المظهر الإسلامي في شأنه الشخصي، ولكنه يكذب، ويؤذي الناس بسلاطة لسانه، ولا يؤدي واجبه الوظيفي، ولا يخفى على أحد الحجاب الشكلي الذي ترتديه بعض الفتيات حيث إنها تغطي شعرها وتلبس البنطال الضيق جداً، وتمازح الشباب وتضع على وجهها الأصباغ، إنها تركيبة مضحكة، وهي تدل فعلاً على جهل تام بمعاني الستر والعفة والتصون وعدم إغراء الآخرين والتي تشكل المقصد الأسمى من مشروعية الحجاب.

٢ـ نحن نعرف أن الحكمة من مشروعية الزكاة هي تطهير الأموال مما قد يكون قد شاب عملية كسبها بالإضافة إلى تزكية نفوس باذليها من الشح والأنانية إلى جانب كون الزكاة أحد المصادر المهمة لمساعدة العناصر الضعيفة في المجتمع وكونها جزءاً من عملية الاستدراك على القصور في النظم الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والسياسية السائدة في المجتمع، ونعرف إلى جانب هذا أن ملك النصاب وحوَلان الحول شرط لوجوب الزكاة في النقد وعروض التجارة، وقد حدث تطور مهم في هذا الشأن يتطلب من فقهاء الأمة اجتهاداً جديداً في شأن حولان الحول إذا ما أرادوا المحافظة على روح هذه الفريضة العظيمة، وهذا التطور يكمن في أنك تجد من يملك ألفي دولار،و تجب عليه الزكاة، ومن يملك مئة مليون، ولا تجب عليه الزكاة، وذلك لأن أمواله عبارة عن مجمعات وأبراج وعمائر يؤجرها، وكلما تجمع لديه شيء من أجورها اقترض فوقه من

البنوك وأنشا به مشروعاً عقارياً أو صناعياً جديداً، فهو يملك الكثير، والنقد لديه قليل، ومدين لبيوت التمويل، إن التمسك بالشكل في هذه الحالة سيجعلنا نفرِّط بالروح والمضمون، وقد نص الفقهاء على أن للحاكم المسلم أن يفرض في أموال الأثرياء،ما يساعد على سد حاجات الفقراء إذا لم تقم أموال الزكاة وأموال الدولة بذلك.

البحث عن الروح فن من الفنون العظيمة وإنما كان عظيماً لأنه دائماً يجعلنا نعيد الأمور إلى نصابها، ونضعها في الإطار الصحيح.

الثلاثي المتكامل

على مدار التاريخ كان تطوير الواقع والارتقاء في معارج الكمال أحد الهموم الأساسية التي تشغل بال الناس، لكن المشكل الذي كان دائماً يربك الإنسان أثناء بحثه في هذا الشأن هو الأسس والمبادئ والأدوات التي يحتاجها في انطلاقه في عملية التغيير، وفي استمراره في تلك العملية؛ وفي اعتقادي أن التقدم الحضاري يقوم على ثلاثة أمور مترابطة ومتكاملة، هي المعرفة، والتربية، والنظم والقوانين، ومن المهم توضيح هذه المسألة من أجل تحسين درجة الوعي بها:

١ـ المعرفة:

لدينا الكثير من المعارف، ونحتاج إلى الكثير، لكن التقدم الحضاري يحتاج أكثر ما يحتاج إلى المعارف المتعلقة بالواقع؛ فالناس في حاجة إلى أن يتعرفوا على

أنفسهم وما لديهم من نقاط قوة وضعف، وفي حاجة إلى أن يعرفوا ما في واقعهم الشخصي من إمكانات وتحديات وفرص، وهم في حاجة أيضاً إلى أن يتعرفوا على الأسلوب الأمثل الذي ينبغي أن يتّبعوه في تربية أبنائهم، وعلى أسلوب تعاملهم مع بعضهم بعضاً... الناس محتاجون إلى كل ذلك حتى يعيشوا حياتهم بطريقة صحيحة، وهذه المعارف ينبغي أن تكون موثوقة وحديثة، وهاتان الصفتان ضروريّتان للغاية، وذلك بسبب كثرة المعلومات المغشوشة، وكثرة المعلومات التي صارت مادة للمتاجرة بين المستفيدين منها، وحداثة المعلومات ضرورية أيضاً بسبب سرعة التغير الحادث الآن، ومن المعروف عموماً أن الواقع يتغير بسرعة أعلى من سرعة تطور الوعي، ولهذا فإن كثيراً من الناس يعملون وفق معطيات متقادمة بل تكاد تكون منسوخة!

نحن نريد من وراء الحصول على المعلومات شيئاً آخر غير إدارة شؤوننا الشخصية بكفاءة، ألا وهو بلورة منهج ورؤية جديدة للتعامل مع حوادث الحياة، وإذا لم نحصل على هذه الرؤية، فالبديل جاهز، وهو الركون إلى العادات والتقاليد المتوارثة، والاعتماد على المعلومات غير الممحَّصة والخبرات غير الناضجة، وهذا بالضبط هو الذي يجعل حياة كثير من المسلمين مشحونة بالتخبط والارتباك.

٢ـ التربية:

التربية ذلك الجهد المبرور الذي نبذله في البيوت والمدارس... من أجل تحويل المعارف والمعلومات ذات الطابع العملي إلى (ثقافة)، ونعني بالثقافة هنا

مجموعة العقائد والأخلاق والنظم والعادات والتقاليد السائدة في بيئة معينة. إن المربين من خلال جهودهم المتواصلة يصوغون شخصيات من يربّونهم وفق الرؤية الحضارية الجديدة ووفق المعلومات الموثوقة التي تحدثنا عنها، وهذه مهمة جليلة للغاية؛ إذ من غيرها يحدث لدينا ما يشبه الانفصام في الشخصية، وذلك حين يستطيل ويتسع يعرّضنا لمقت الله ـ تعالى ـ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ (الصف: ٢-٣)

الحقيقة أن المجتمع لا يتقدم بالشكل الصحيح إلا إذا صارت التربية في البيوت مطابقة للمبادئ والقيم والمعارف التي يتم تلقينها للطلاب في المدارس، فنحن نشيد فيها بقيم العدل، والصدق، والأمانة، والنزاهة، والرحمة، والجدية، والتعاون، والدقة، والوفاء بالوعد... وليس التخلف شيئاً مغايراً لما يعانيه كثير من الناس حين تكون عقائدهم وأقوالهم في واد وسلوكياتهم ومواقفهم في واد آخر!

٣ـ النظم والقوانين:

لدى كل الأمم دساتير ونظم وقوانين بما يكفي ويزيد، ويتجسد الفارق بين أمة متقدمة وأمة متخلفة على هذا الصعيد في أن القوانين في الأمم المتخلفة تكون نافذة على الضعفاء وعلى أولئك الذين لا يدفعون المال، أما في الأمم المتقدمة فإن هناك الكثير من الحوافز والضمانات لجعل القوانين سارية على الجميع، وهذا واضح.

إن المعارف والعقائد والرؤى حين تتحول إلى (ثقافة) بفضل (التربية) تصبح حاجة الأمة إلى القوانين محدودة؛ لأن الناس يفعلون الخير، ويقومون بواجباتهم، ويكفّون عن الشر بدافع من عقائدهم وأخلاقهم وما نشأوا عليه، وحين تُطبَّق القوانين بشفافية وحزم وعلى كل الناس، فإنها تكون قادرة على توليد ثقافة اجتماعية جيدة وشاملة؛ لأن الناس آنذاك يرون أنه لا بد من التكيف معها بسبب ما فيها من منطقية وعدل، وحين تترسَّخ ثقافةٌ ما فإنها تسهِّل إصدار النظم والقوانين التي تتلاءم معها، وهكذا تنشأ علاقة جدلية جميلة بين الثقافة والقانون.

حين تفشل التربية في جعل الثقافة صدىً لعقيدة الأمة وقيمها، فإن الدولة تضبط مسيرة المجتمع عن طريق استخدام القوة المفرطة، وعن طريق تشريع المزيد من النظم والقوانين، وتكون النتيجة مخيبة للآمال، وذلك لأن الأمم تنبعث من قلب المبادئ التي تؤمن بها، وتنتعش بالقيم العظيمة التي تحترمها، أما العقوبات والقوانين فإنها تحمي قيم الأمة ومصالحها، وتظل عاجزة عن بعثها والنهوض بها: (العقوبات لا تنشئ مجتمعاً لكنها تحميه)، وهذا هو السر في أن معظم نصوص الكتاب والسنة تركِّز على بناء الإنسان المسلم من الداخل.

تحت المجهر

في إمكاننا أن نجعل يوم (١١سبتمبر)يوماً فاصلاً في يقظة الوعي الغربي وانتباهه تجاه ما يشكله الإسلام من رصيد روحي ومن تحد للفلسفة التي قامت عليها الحضارة الغربية. قبل (١١ سبتمبر) كان الغربيون على جهل بجوهر الإسلام وواقعه، كما كانوا على جهلٍ كبير بمدى قدرة الإسلام على صياغة حياة المسلمين وعلى تحفيزهم للتضحية من أجله، لكن كل شيء بعد ذلك التاريخ قد اختلف، فقد أخذ الغربيون ـ ولاسيما الأمريكيين- يقرأون عن الإسلام، ويتصلون بالمراكز الإسلامية في الغرب، كما أنهم صاروا يراقبون تحركات المسلمين وأسلوب حياتهم بعيني صقر، وقد أدى ذلك إلى شيئين بارزين:

الأول: هو ازدياد عدد الذين يدخلون في الإسلام بسبب ما أتيح لهم من معرفته والاحتكاك بأهله المستمسكين به.

الثاني: هو وجود حركة ثقافية وإعلامية نشطة جداً، تستهدف تشويه صورة الإسلام وصورة حماته وحملته من العرب والمسلمين، حيث لا يكاد يمرّ أسبوع حتى يصدر في أمريكا وأوربا كتاب أو أكثر عن الإسلام والعرب والمسلمين، ومعظم تلك الكتب لا يخلو من أشكال من الإساءة إلينا وإلى ديننا، وبأسلوب بارع ومتقن. والحقيقة أن هناك حملة ثقافية وإعلامية واسعة النطاق، وما الرسوم المسيئة لشخص النبي ﷺ وما تصريحات (البابا) مؤخراً، وتصريحات (بوش) عن الفاشية الإسلامية، أقول: ما كل ذلك سوى ما يطفو على سطح الماء من جبل الثلج. لا أريد الآن أن أتحدث عن مساهمة أحداث (١١سنتمبر) فيما يجري اليوم ولا عن الدور الصهيوني الحاقد، وإنما أود أن أتحدث عن دور المسلمين في مقاومة الهجمة الشرسة التي نتعرض لها. الحقيقة أننا لا نملك الأدوات الإعلامية الكافية لإبلاغ وجهة نظرنا للغرب، وإن كنا مطالبين بالاعتراف بأننا لم نُحسن استخدام ما بين أيدينا من وسائل على النحو الأمثل. في كل الأحوال نحن نستطيع أن نفعل أشياء كثيرة، من أهمها:

١ـ التركيز في تعاملنا مع بعضنا، وفي تعاملنا مع أهل الملل الأخرى- ولاسيما الغربيين- على الوجه الحضاري الأصيل للإسلام، وأهم قسمات ذلك الوجه هي: اللطف والرحمة والصفح والإحسان والصدق والوفاء والتعاون والتضحية، وتفهم وجهات نظر المخالفين، وحب الخير لجميع الناس والمحافظة على البيئة والهدوء والتعاطف مع الآخرين والإحساس بهم.

٢ـ تستطيع المراكز الإسلامية في الغرب أن تقوم بدور ريادي في هذا الشأن من

خلال تأمين قنوات تواصل ممتازة مع الناس هناك، إنها تستطيع إقامة أيام مفتوحة عديدة كل سنة لاستقبال الناس كل الناس ليخالطوا المسلمين، ويطّلعوا على حقيقة عقائدهم وأوضاعهم، وليتنفسوا عبق الأجواء الروحية السائدة في تلك المراكز.

٣ـ تحتاج الأعمال الدعوية في الغرب إلى قيادات إسلامية فذة من السكان الأصليين لتلك البلاد، لأنهم يعرفون ماهية الخطاب الذي ينبغي أن يوجَّه للإنسان الغربي، ولاسيما تلك الأنشطة التي تتعلق بدعوة الغربيين والحوار معهم.

٤ـ يساعد كثير من المسلمين في الغرب أهل البلاد هناك على تشويه صورة الإسلام من خلال السلوكيات الشائنة واللا إسلامية واللا إنسانية التي يرمقها الإنسان الغربي، بل يعاني منها، وإن علينا هنا في بلاد الإسلام مسؤولية كبرى في دعم الجاليات الإسلامية في أوربا وأمريكا، والمساهمة في إرشادها وتوعيتها حتى تتحسن الصورة التي تقوم بتقديمها.

في الختام لا بد من القول: إن الذي يريد تحقيق الغلبة الحضارية على مستوى العالم، يحتاج إلى تحسين صورته في أذهان الآخرين، لكن ذلك التحسين يظل مجوّفاً إذا لم يكن فرعاً عن تحسين ذاته، وهذا هو التحدي الأكبر الذي يواجه الأمة، ويواجه كل واحد منا، فهل نقبل التحدي ؟

شيء عن الإدراك

متّع الله ـ تعالى ـ الإنسان بالحواس الخمس: السمع والبصر واللمس والذوق والشم؛ ليتعرف من خلالها على الوجود المحيط به، وجعل لعمل تلك الحواس شروطاً وحدوداً تتوقف عندها، وهذه الحواس تعمل بشكل طبيعي غير مرهق ولا مكلف، ونظراً لإلفنا لها فإننا لا نحاول معرفة كنه عملها، بل نظن أنه بسيط للغاية، كما أننا لا نعرف وظيفة هذه الحواس في عملية الإدراك. ولا شك في أن الجهل بهذه الأمور يؤثر تأثيراً كبيراً في نوعية فهمنا للواقع وفهمنا للأحكام العقلية التي نصدرها على الأحداث والمواقف من حولنا. ولعلّي أشيرهنا إلى شيء من ذلك عبر النقاط الآتية:

١- الحواس عبارة عن وسائل وممرات لنقل (صور) متنوعة عن الأشياء التي نتصل بها من خلالها، وهذا يعني أن هذه الحواس يجب أن تكون جيدة

حتى يكون النقل جيداً، فحين يكون البصر ضعيفاً ـ مثلاً ـ فإنه لا ينقل الصورة بالوضوح والتحديد كما يريدها الدماغ، وهذا يضلله عند إصدار الأحكام على تلك الصورة أو نسبة بعض الأشياء إليها، وحين يكون السمع ضعيفاً فإن بعض الكلمات المشتملة على العديد من الأصوات الضعيفة كالأصوات المهموسة ـ مثلاً ـ قد لا تتمكن الأذن من التقاطها، وهو ما يعني أن السامع لا يسمع كامل العبارة، وقد قالت العرب في مَثَل عتيق: ((أساء سمعاً فأساء جابة)) أي: أساء السمع، فأساء في الجواب على ما سمع. ومن هنا فإن علينا حين نرى شيئاً، أو نسمع عن شيء أن نتأكد أننا رأينا وسمعنا بعيون وآذان جيدة.

٢- إذا كانت الحواس عبارة عن أدوات لالتقاط الصور والمثيرات المختلفة؛ فإن هذا يعني أن (العقل) هو الذي يسمع ويرى على الحقيقة، وليس الأذن والعين. إن الله ـ تعالى ـ وهبنا إمكانات ذهنية عظيمة، ووهبنا بعض المبادئ والبدهيات التي تشكل ما نسميه (العقل الأول) أو (العقل الفطري)، وهذا العقل هو الذي يستقبل ما ترسل به الحواس، والعجيب أنه يتعلم مما يرده، ويستفيد منه كل خبراته، لكنه مع ذلك يظل قادراً على الحكم عليه وكشف كثير مما فيه من زيف وتحريف!

عقولنا تعيد صياغة وإنتاج ما نكسبه من معارف وخبرات وتجارب من جديد، وغالباً ما تصوغه في شكل مفاهيم وأفكار وملاحظات، أي: أن العقل يجسِّد ما عقله عن طريق استخدام اللغة، ويصبح هذا المعقول بعد ذلك مادة للتفكير والتداول والتطوير... ومن مجموع ما تمت معالجته وقولبته على يد

العقل الأول يتشكل لدى الإنسان (غشاء ثقافي) أو (نظارة عقلية)، ومن خلال ذلك الغشاء أو تلك النظارة نرى الأشياء من حولنا، وهذا يعني أن لكل واحد منا منظوره الخاص ورؤيته المتفردة.ومما يروى في هذا السياق أن شاباً من إحدى القرى القريبة من (أثينا) وفد إليها ليتلقى العلم عن (سقراط) فسأله (سقراط): كيف تركت أهل قريتك؟ فقال الشاب: أهل قريتي أهل كرم وشهامة ومروءة وهم في حال حسنة، قال (سقراط): أهل (أثينا) كذلك. وبعد سنوات قليلة وفد على سقراط شاب آخر من القرية نفسها، فسأله سقراط عن أهل قريته، فقال الشاب: أهل قريتي أهل لؤم وسوء، ولديهم الكثير من المشكلات. فقال سقراط: أهل (أثينا) كذلك! ومراده أن النظارة التي رأى من خلفها كلٌّ واحد من الشابين أهلَ قريته هي النظارة نفسها التي سيرى بها أهلَ أثينا، مع أن وضعيتها قد تكون مختلفة عن وضعية تلك القرية. هذا يعني أن هناك واقعاً محدداً لكن الناس ينظرون إليه من زوايا مختلفة وعبر أغشية ثقافية متباينة، وحين يعبِّرون عما شاهدوه، فإنك تشعر أنهم لا يعبِّرون عن واقع سائد في بلد واحد، وهذا ملموس جداً فلو سألت عدداً من الشباب المشتغلين بالدعوة عن حال الصحوة الإسلامية في البلد الذي ينشطون فيه لسمعت أجوبة متباينة، وكلما خضت معهم في التفاصيل أكثر وأكثر لمست تبايناً أكبر، وهذا كله يشير إلى ضرورة الاهتمام بنوعية التثقيف الذي تتعرض له الأجيال الجديدة؛ فنحن إذ نعلِّم ونربي نمنح مناظير ونظارات لمن نعلمهم، أي: أننا نحدد الكثير من اتجاهاتهم والكثير من أسس إدراكهم للواقع وأسس تفاعلهم معه.

٣ - نحن ننظِّم ردود أفعالنا على أحداث الحياة من أفق ما عقلناه من تلك الأحداث ومن أفق تفسيرنا له وفهمنا لأسبابه وعلله، فإذا كـان ذلك صـواباً أو قريباً من الصواب فإن ردود أفعالنا تكون راشدة أو أقل خطأ، وإذا كان خاطئاً أو مشوَّهاً فإن ردود أفعالنا عليه ستكون كذلك. ومما يروى في هذا السياق أن رجلاً كان راكباً في قطار ومعه طفلان صغيران، وقد كانا يتحركان داخل المقطورة بسرعة محدثين نوعاً من الإزعاج، وبعد مدة نفد صبر الركاب، وطلبوا من والد الطفلين وضع حد لذلك، فلم يتكلم الرجل، لكن نفرت دمعة من عينه أثارت شفقة الركاب، فسألوه عن السبب، فقال: إن والدة الطفلـين ماتت وقام بدفنها منذ ثلاث ساعات، ولا يستطيع في هذا الظرف الضغط عليهما، وهنا انقلب موقف الركاب من الصغيرين رأساً على عقب، حيث قاموا بإكرامهما وملاطفتهما غاية الملاطفة.

إن من المهم دائماً أن ندرك أن إدراكنا لما نريد إدراكه لا يكتمل أبداً، كما أن من المهم أن نتوقع أننا لا نفهم الأمور دائماً على النحو المطلوب، ولا يفهمنا الناس على النحو الذي نريده، والمطلوب آنذاك تحسين مستوى كل ذلك والحذر من سوء الفهم؛ ولا سيما حين تكون تكلفته باهظة.

زماننا صعب أم سهل؟

لابد أن يشعر كل واحد منا بالحيرة تجاه ما يسمعه من تقويم الناس لزماننا وتكاليف عيشه، إذ إن هناك من يعتقد أن زماننا زمان رائع وجميل، إنه زمان راحة الأبدان بما توفَّر فيه من آلات توفِّر الجهد العضلي، وهو زمان الفرص والرفاهية والسفر الممتع وزمان النجاح والصفقات والألوان والروائح الأخاذة، وهو زمان الصحة والعافية ومستشفيات (الخمس نجوم)... وإن الناظر في الواقع يجد ألوف الشواهد والأدلة على كل ما قيل ويقال عن سهولة العيش اليوم. وهناك في المقابل من يقول لك: هذا الزمان زمان المشاق والصعوبات والتحديات، ويكفي أنه لم يعد هناك ـ تقريباً ـ أي شيء مجاني، حتى الهواء النقي ربما يكون علينا أن نشتريه قريباً بعد أن صرنا نشترى الماء. هذا الزمان هو زمان الوحشة والأنانية وانعدام الثقة، وزمان الغلاء الفاحش، وزمان التكيف

والأثقال الاجتماعية والأعراف باهظة التكاليف.. كلام كثير يقوله هذا الفريق. وبعض الناس يتمنون لوأنهم عاشوا قبل خمسمائة عام من الآن حتى يكونوا بعيدين كل البعد عن زماننا هذا!

فما الذي يقوله المنصف الخبير الذي يرى كل أجزاء الصورة، وينظر من كل الزوايا ؟

يمكن لكل واحد منا أن يتأمل في هذا الشأن، ولو تأملتُ، فربما أقول الآتي:

١ـ لكل ما قيل من جهة هذا الفريق أو ذاك نصيب من الصحة، وهو يعبِّر عن جزء من الواقع، ما في ذلك ريب.

٢ـ الإحساس بالمرفِّهات والمشكلات ليس موضوعياً على نحو كامل، بل إن للنسبية والذاتية تأثيراً جوهرياً في توليده، فأهل البادية الذين يعيشون من دون ماء يتدفق من الصنابير، ومن غير كهرباء وفنادق ومطاعم ومستشفيات فخمة، والذين لا يجدون أمامهم في كل شيء وكل مجال وكل موقف إلا القليل جداً من البدائل والخيارات... هؤلاء يعرفون كيف يحصلون على مسراتهم الروحية، ويعرفون كيف يتكيفون مع ظروفهم على نحو ممتاز، وإن الواحد منهم لا يشعر بالحرمان إلا إذا حُرِم من أشياء يجدها الناس في محيطه وبيئته، وهولا يغار ممن يملكون ناطحات السحاب في المدن، لكنه يغار من شيخ القبيلة الذي يسكن في بيت من الشعر رحب وفسيح، ويستطيع يومياً أن يذبح الذبائح ويقدِّم العشاء لضيوفه وأبناء قبيلته.

٣- هذا الزمان مثل كل الأزمنة فيه المسرّات والمزعجات، وفيه الفرص التحديات، لكن بسبب التقدم الحضاري المتسارع فإن فرص زماننا أكثر، وتحدياته أشد، والذي يحيا حياة راشدة وطبيعية يتعلم من معاركة ظروف الحياة وأحداثها كيف يستثمر المعطيات والفرص في تجاوز الصعاب ومواجهة التحديات، والمشكلة التي يمكن أن يواجهها البر والفاجر في الشرق والغرب والبوادي والمدن هي أن يكون جاهلاً بروح عصره وعقل زمانه ومزاج دهره، إن عليه في هذه الحال أن يهيئ نفسه لأن يُستغل أسوأ استغلال، ولأَنْ يحمل أثقاله وأثقال من حوله. وهذا يحدث حين يكون المرء فقيراً بين أغنياء، وجاهلاً بين علماء، وفوضوياً بين منظمين، وكسولاً بين نشطين، إن الزمان في هذه الحالة يكون فعلاً بالنسبة إليه صعباً وشاقاً ومملوءاً بالتحديات.

لا تترك لابنك ثروة طائلة ولا بيوتاً وعقارات، ولكن أدِّبه بآداب الإسلام، ووفر له أفضل تعليم ممكن، ثم فوِّض أمره إلى الله ـ تعالى ـ فذاك هو السلاح الذي يمكن أن يخوض به معارك عصره وكل عصر.

خارج السيطرة (١)

على مدار التاريخ كانت الابتكارات التقنية قادرة على إدخال تعديلات جوهرية على حياة الناس وأسلوب عيشهم، كما أنها كانت عبارة عن أدوات يستخدمها الناس في الحفاظ على وجودهم، وكانت القوى المنتجة تعمل من أجل سدّ حاجات السوق، ولم يكن هناك ما يكفي من الوسائل لحث الناس على زيادة الاستهلاك، أضف إلى كل هذا أن التطور التقني كان بطيئاً للغاية، فقد يمضي على المنتج الواحد قرون دون أن تدخل عليه أي تغيّرات أو تطوّرات جوهرية، لكن كل ذلك قد أصبح جزءاً من الماضي، وبدأ تاريخ جديد يثير فزع العالمين بالأمور وأهل الرؤية الاستراتيجية، فالأدوات التي كنا نستخدمها غمرتنا اليوم كما يغمر البحر الشواطئ في أوقات المد، لذلك فلن يكون من الصواب النظر إليها على أنها أدوات بل أصبحت تعيد تشكيل حياتنا

وعلاقاتنا وطموحاتنا، وصارت المصانع لا تنتج من أجل سد الحاجات، وإنما من أجل إيجاد المزيد من الحاجات، وهذا ما يعمل المعلنون التجاريون عليه!. أما سرعة التطورات التقنية وسرعة عولمة الحياة، فقد فاقت كل خيال، ويكفي في هذا أن نعرف أنه لا يمرعلى الناس تسع دقائق إلا وتكون (سوني) قد أدخلت تطويراً معيناً على أحد منتجاتها كما أنه لا يمر على الناس إحدى عشرة دقيقة حتى تكون (ماكدونالز) قد افتتحت فرعاً جديداً لها!ما الذي ترتب على كل هذا؟ قد ترتب على هذا الكثير من الأوضاع الكونية الجديدة التي تستدعي الكثير من التأمل والحذر والعمل، ولعل من ذلك الآتي:

١-الاعتقاد بأن الواقع المعيش قد خرج عن السيطرة، وهذا واضح، وذلك لأنه كلما كثرت مكونات أمر من الأمور ازداد تعقيداً، وارتبك الوعي في إدراكه وتحليله والسيطرة عليه، وأي واقع يمكن أن يكون أكثر تعقيداً من واقعنا اليوم؛ إذ تتوافد عليه ملايين الصور والوقائع والرموز والمؤثرات الثقافية والاقتصادية والإعلامية!! ومع أننا قد قسمناه إلى مئات الأجزاء والمجالات إلاّ أن المشتغلين في كل مجال يشعرون بنوع من العجز عن فهم مجالهم، وهذا يعود أساساً إلى وجود ألوف بل عشرات الألوف من الباحثين الذين يُدخلون تطويرات عديدة على كل مجال من المجالات، فلا يكاد العاملون يستوعبون نظاماً أو آلة أو آلية حتى يُنسخ، أو يُطوّر، فيجدوا أنفسهم بالتالي في حاجة إلى تدريب جديد.

٢- في المجتمعات النامية احتشاد هائل للناس؛ ولا سيما الصغار والمراهقين، وهذا الاحتشاد بات شيئاً فشيئاً يخرج عن السيطرة؛ إذ تدفع المساكن الضيقة

في اتجاه الشوارع والمتنزهات والبراري، وحيث تتراجع الرقابة الاجتماعية باستمرار، وهذا أدّى إلى وقوع الكثير من الانحرافات الأخلاقية الخطيرة دون أن تكون هناك إمكانية لكشفها أو ملاحقتها، وصاحبَ كل ذلك إغراءات شديدة، مصدرُها وسائل الإعلام، إغراءات بتجربة الممنوعات من كل الأشكال والأنواع. والحقيقة أن الذين صاروا خارج السيطرة ليسوا الأطفال والمراهقين وحدهم، بل هناك ما لا يُحصى من حالات الغش والتزوير والرشوة والخروج عن النظم السارية، وما تبثه العولمة والنظام الرأسمالي من روح المسارعة إلى تكوين الثروة في أقل مدة، مما دفع أعداداً كبيرة من الموظفين في اتجاه الحصول على المال بأي طريقة ممكنة من غير التفكير في مدى شرعيتها! ومن المعروف أن طرق مقاومة الغش تظل متخلفة ومتأخرة عن الأسباب والوسائل التي تساعد على وجودها!

٣- التربية والتعليم أيضاً صارا خارج السيطرة؛ فقد كان الناس يُربّون في بيئات مغلقة، وكانت النماذج التي تُقدّم للأطفال على أنها قدوات محلية أو منتزعة من تاريخ الأمة، لكن هذا قد انتهى، فالأطفال يتلقون تعليمات الآباء والأمهات في بيئات مفتوحة، وهم يقارنون ما يسمعونه منهم بما يرونه في التلفاز والإنترنت، أي صار لديهم ما يشبه المرجعيات التربوية المغايرة، وصار بذلك كثير مما كان يُعتقد أنه مسلَّمات موضعَ نقاشٍ وجدالٍ وشك. وللتعلم والتثقف الوضعية ذاتها، فقد صارت هناك إمكانية هائلة لتنمية المعرفة دون التتلمذ على معلم أو الجلوس بين يدي شيخ، وصرنا نسمع لدى كثير من الشباب عن

آراء وأفكار غريبة وبعيدة عن الحق والصواب والمنطق، وما ذلك إلاّ بسبب الافتقار إلى التوجيهات المصاحبة للاطلاع على الكتب، والتي كانت تتوفر من خلال التتلمذ على الأساتذة والشيوخ.

٤-نحن نشهد اليوم ما يمكن أن يُسمّى (انفجار الاتصال) فوسائل البث والاتصال المتقدمة والمتعاظمة حطمت حواجز المكان، وصار الإنسان يشعر بالوحشة نتيجة ضعف شعوره بالتموضع في مكان معين. إنه صار في مهبّ الريح، وصار ينوء بحمل أعباء ما يحصل في العالم من مآسٍ دون أن يكون مؤهلاً لاستيعاب ذلك أو التفاعل معه. الدماء والأشلاء والجثث المتحللة والانفجارات المروعة ووحشية الإنسان تجاه أخيه الإنسان كدّرت المزاج العام، وجعلت الناس يشعرون بالخوف، وسهّلت على قسم منهم ارتكاب الفظائع؛ ولا يستطيع أحد أن يوقف شيئاً من كل ذلك عند أي حدود. لا أريد هنا أن أتحدث عن خروج الأوضاع المناخية عن السيطرة، فهذا ما يعرفه القاصي والداني.

خارج السيطرة (٢)

نحن اليوم أمام وضعية جديدة غمرتنا فيها الأشياء، وتراجعت قوة الإرادة، ونخشى أن تصبح العربة أمام الحصان.

كثيراً ما وقعنا في خطأ منهجي واضح ومؤثر، وهو أننا نرد على فساد البيئات وتعقُّد الوضعيات بسيل من المواعظ والنصائح والإملاءات الكلامية لنكتشف بعد ذلك أن الأمور تتجه نحو الأسوأ، وكأننا لم نفعل أي شيء! إن الوضعية السيئة تحتاج إلى تغيير بمثل الوسائل والمعطيات التي ساهمت في إنشائها، أوالاتجاه إلى العمل على تأسيس بيئة منافسة تساعد الناس على الصلاح والفلاح، وتصبح مأوى وملاذاً لكل أولئك الذين يحبون أن يعيشوا وفق مراداتهم، وليس وفق مرادات غيرهم ولعلي أشير في هذا السياق إلى الآتي:

١- مقاومة ما يجعل ما ذكرناه خارج السيطرة أمر في غاية المشقة؛ لأنه يعني

العمل ضد آليات عملاقة يقف خلفها عشرات الملايين من المنتفعين، كما أن كثيراً من الناس قد جرفهم التيار دون أن يشعروا، وصاروا في النهاية يشكلون أمواجه، ويساعدون على امتداده واجتياحه، كما أن كثيراً مما نسعى إلى القيام به يعتمد على إقناع الناس ومبادرتهم، وضبطهم لأنفسهم، وما شاكل ذلك، وهذه الأمور لا تكون إلاّ ناقصة ومحدودة ونسبية، ونحن كما هو معروف لا نستطيع أن نصل إلى حلول كاملة في وسط غير كامل وفي ظل معطيات غير مواتية.

أقول هذا الكلام حتى ندرك على نحو عميق أن الخلاص الجماعي - مع أنه مطلوب- غير ممكن، لهذا فإن على كل واحد منا أن يصلح شأنه وشأن أسرته، ومن هم في رعايته، ويقدم من خلال ذلك المثل والنموذج ليقتدي به غيره؛ وعلينا من وجه آخر أن ندرك أن معالجة هذه الوضعية الجديدة تحتاج إلى (حلول مركبة)؛ لأن الظواهر الكبرى كما أنه لا يصح تفسيرها بعامل أو عاملين، فإنه لا يصح التعامل معها من خلال حلّ أو حلّين.

إن الذي يغلب على الباحثين وعلى الناس وعلى المجالس والهيئات هو النظر إلى (التنمية المطلوبة) على أنها تنمية اقتصادية تؤدي إلى زيادة دخل الفرد وترفع درجة رفاهيته، وهذا في نظري هو الذي جعل المشكلة تزداد تفاقماً من خلال اشتداد الطلب على المال وضعف قوى الممانعة والمقاومة في نفوسنا وفي حياتنا العامة..

إن الرؤية الإسلامية لمسائل التنمية تجعل من تنمية قيم المجتمع والارتقاء

بأخلاقه وسلوكياته.. الهدف الجوهري لكل الجهود التي تُبذل على صعيد الاقتصاد والإعلام والسياسة والتربية والتعليم... وليس توفير المال والإمكانات المادية سوى أداة لتحقيق تلك التنمية، وأعتقد أن هذا التحوير للهدف الأساسي من التنمية هو الذي ألحق بنا كل هذا الضرر على الصعيد الأخلاقي والاجتماعي، ولا بد من العودة إلى أن ننظر للمال على أنه أداة تنموية تُستخدم لإصلاح حال الإنسان والارتقاء به، وليس هدفاً مستقلاً.

٢- هذا المد العاتي الذي يجعل كثيراً من الأشياء خارج السيطرة من خلال الأعمال الثقافية والأدبية فحسب، بل لا بد إلى جوارها من سن عدد كبير من النظم والقوانين التي تكافح الرشوة والفساد المالي والإداري والاستغلال السيئ للثروات، وتضع حدوداً للجشع وتحفيز الناس على المزيد من الاستهلاك والمزيد من الإيغال في الرفاهية. والمشكل الذي يواجهنا في كثير من على هذا الصعيد هو عدم تطبيق النظم الموجودة على نحو عادل وصارم بسبب النقص المريع في الكفاءات البشرية التي تجمع بين النزاهة والخبرة العالية، مع أن الذي يبحث عن هذه النوعية من الناس سيجدها، كما أنه يستطيع توسيعها لو أراد.

٣- إن أبناءنا وبناتنا هم الوقود الحي لعمليات التخريب الواسعة التي تتعرض لها مجتمعاتنا اليوم، ونحن الكبار نتحمل جزءاً كبيراً من المسؤولية عن ذلك، فنحن لم نعمل على تربية الشباب على التسامي على المظهريات والشكليات، بل عمّقناها في نفوسهم، كما أننا لم نستثمر طاقاتهم في نفع البلاد والعباد من خلال إقامة المؤسسات والأطر الخيرية والتطوعية والإغاثية، ولهذا فإنهم

يعانون من فراغ روحي وفكري رهيب، وحين يضيع الإطار وتتبعثر الأهداف يعمى البصر والبصيرة ويتلاشى الوجود، وتصبح الحياة من غير معنى! إن مقياس التقدم الحقيقي في أي مجتمع يرتكز على حجم الشريحة المهتمة بالشأن العام والعاملة من أجل خير الجميع، وعلينا أن نتعلم كيف نعمل على توسعتها وتنشيطها.

٤- نحن في حاجة إلى حماية الفرد المسلم من تغوّل الشركات الكبرى والقوى العظمى التي تقهره وتستغله وتتلاعب به في العديد من المجالات، ولا سيما المجال الاقتصادي، وهذا يتطلب إنشاء عدد كبير من الجمعيات والمؤسسات ذات الطابع التعاوني، والتي يستفيد من أرباحها عدد كبير من الناس، وذلك في المجال الغذائي والمجال الصحي والطبي خاصة، وقد قامت العديد من الدول بذلك وسجلت نجاحات عظيمة، وينبغي تعميم تجاربها على نحو سريع وشامل، والوقت لا يسمح بالتراخي بعد اليوم، ولا سيما إذا أدركنا أن كثيراً من البلدان العربية والإسلامية باتت خاضعة لقوى ثعلبية تجيد المكر والتحايل، وحظها من الشعور الديني والوطني ضئيل للغاية؛ فنحن مع الانفتاح والتجديد، لكننا لسنا مع الضياع وتخريب النفوس والذمم وتقديس القشور والشكليات.

العامة تنتقم

على مدار التاريخ، ولدى كل الأمم كان الناس ينقسمون إلى قسمين: خاصة وعامة، وذلك بسبب الموروثات الطبقية والاقتصادية وبحسب ظروف النشأة وحوادث الحياة... الخاصة يعلمون، ويتكلمون، ويقودون، ويمثلون الرشد، وينطقون باسم الراشدين... أما العامة فإنهم يسمعون، ويقادون، وخبرتُهم في الحياة محدودة، وهم مصدر للفوضى والغوغائية، كما أنهم من غير أي مستقبل لأن الخاصة نفضوا أيديهم من إمكانية صلاحهم وإصلاحهم (!) ومع أن هناك أنصاف الخاصة ومتنوري العامة أو من هم قريبون من الخاصة إلا أن هؤلاء لا يهتم بهم أحد، وهم تارة يُصنفون مع الخاصة، وتارة يُصنفون مع العامة بحسب من يقوم بالتصنيف. ومنذ القدم كان لمن يُسمّون بـ (العامة) اعتراضات كثيرة على الخاصة: اعتراضات على الآراء والمواقف والسلوكيات،لكن

ليس بين أيديهم أي وسيلة لنشر آرائهم ووجهات نظرهم، ولهذا فهم يشعرون بأنهم مقموعون ومهمَّشون بغير وجه حق! اليوم اختلف كل شيء، وحان الوقت للعامة كي تستعيد اعتبارها، وتعبر عن كل ما يجول في عقولها، ويغلي في صدورها تجاه الخاصة وخاصة الخاصة، فليس هناك اليوم أحد فوق من النقد! وسبب هذا التغير ما استجد على صعيد النشر الإلكتروني والبث الفضائي على وجه التحديد.

في الماضي كانت دور النشرهي الجهة التي تتحكم بذيوع المعرفة المكتوبة، وهي بالطبع لا تنشر إلا للكتّاب الذين تعتقد أن كتبهم تحقق مبيعات جيدة أو مقبولة، إي إنها ما زالت حكراً على الخاصة. أما اليوم ففي إمكان أي شخص أن ينشئ موقعاً على (الإنترنت) ويقوم بنشر أقواله عليه، وإن إنشاء موقع شخصي ليس له أي شروط، وتكلفته المادية في متناول كل الناس أو جلهم،وأما على صعيد الكلمة المسموعة، وعلى صعيد البث التلفزيوني، فقد كان الكلام يمضي في اتجاه واحد، ولم يكن أمام العامة سوى الاستماع والمشاهدة، أما اليوم فإن المستمعين والمشاهدين باتوا مطلوبين بشدة لأن في اتصالهم بمقدمي البرامج وضيوفهم من الخاصة ما يضفي الحيوية والجاذبية على تلك البرامج واللقاءات... ومن اللطيف أنك ترى عالمين كبيرين متبحرين في علم من العلوم أو قضية من القضايا، وترى كيف يصوّت الجمهور لتأييد وجهة نظر أحدهم وترجيحها على وجهة نظر الآخر، ويذكر مقدموا البرامج حصيلة التصويت بشيء من الزهو والنشوة، وكأن آراء جمهورهم آراء جمهور الفقهاء أو المؤرخين... مع

أننا نعرف أن الترجيح بين قولين هو نوع من الاجتهاد، فكيف يمارسه من ليس لديه أدنى اختصاص ؟!

وإذا ذهبت إلى (الإنترنت) وجدت العجب العجاب، حيث إنك لا تجد إلا من يدعي العلم والقيم والرؤية الثاقبة، الكل يتكلم وينقد ويفتي... والخاصة موضع شك وجدل، ويلقى كثير منهم من التوبيخ والشتائم ما يصعب احتماله أو تصديقه.. لاشك أن البث الفضائي قد زاد في نفوذ بعض الخاصة، وأكسبهم صفة العالمية، لكن الحوارات التي تجري على الفضائيات أعطت انطباعاً للعامة بأن كل شيء قابل للخلاف، وأن الحقيقة تائهة أو مائعة، كما أن اختيار الفضائيات للخبراء والمتحدثين والمستشارين والمعلقين على الأحداث لا يتم في كثير من الأحيان بناء على الخبرة وإنما بناء على الولاء والانتماء، ولهذا فإن كثيراً من المشاهدين يقولون في أنفسهم في مناسبات كثيرة: إن هؤلاء جميعاً على باطل، وبينهم وبين النزاهة والمصداقية واد عميق وعريض!.

التحدي الذي يواجهنا يتمثل في امتلاك كثير من الناس الفرصة للتحدث والقول والتعليق على كل شيء دون أن يكون لديهم الحد الأدنى من المعرفة الموثوقة والعلم الصحيح، وهذا الأمر في تصاعد مستمر، ومع تصاعده ربما ضاع صوت الحق والرشد واختلطت الأمور على الجميع، وصار لزاماً علينا أن نفكر في عمل بعيد المدى يعيد التوازن إلى هذه القضية الجوهرية والشائكة.

صور من فقه الأسباب (١)

نحن نحيا في هذه الحياة في عالم الأسباب والمسبَّبات، وعالم المقدّمات والنتائج، ونحن مطالبون بقوة في التفريق بين ما هو سبب أو جذر، وما هو نتيجة أو ساق وغصن، ولا شك في أن رحلة البحث في عالم الأسباب رحلة ممتعة للغاية، وأنا شخصياً لا أريد أن أصل في هذه الرحلة إلى آخر الطريق، إنما أودّ أن أظل في حالة اكتشاف مستمر؛ لأن الظن بأننا قد اكتشفنا كل شيء هو ظن في غير محله من جهة، وهو مقدمة للجمود والتقهقر من جهة أخرى. إصلاح أوضاعنا وأحوالنا يتطلب منا على نحو ملحٍّ أن نكون فعّالين جداً في تنظيرنا وطروحاتنا؛ لأنه لم يبق لدينا مزيد من الوقت لإضاعته في الحديث عما هو معلوم، أو عما لا أهمية له.

إن الدخول إلى عالم الأسباب هو دخول إلى عالم السنن وعالم الطبائع التي فطر

الله -عز وجل- الأشياء عليها، وهو عالم مملوء بالأسرار على أنه العالم الذي تخرج منه الأسرار، لتعود إليه من جديد.

إن كل من يحمل مشروعاً إصلاحياً يودّ لوأن مشروعه ينجح في أقل مدة زمنية ممكنة، لكن تعقيدات الواقع والقوى المعاكسة فيه تحول دون ذلك، ولعل من أكثر أخطائنا تكراراً أننا قد تعوّدنا النظر إلى الظواهر الاجتماعية المختلفة على أنها أشبه بالجزر المعزولة عن بعضها، مع أن الإنسان بروحه وعقله وجسده يشكِّل الأرضية التي تلتقي عليها كل الظواهر، ولِمَ لا، وهو الذي يساهم في صنعها، وهو الذي يطورها ويكتوي أيضاً بنارها؟!

نحن كثيراً ما نفقد الحماسة للبحث عن الأسباب؛ لأن البحث فيها مجهد ومضنٍ، ونتائجه ليست، مضمونة، وأحيانا لا نعترف بأهمية ذلك البحث وجدواه. وأعتقد أنه قد آن الأوان لمغادرة هذه الوضعية، والبدء في الحفر في الطبقات العميقة لحياتنا الاجتماعية بكل أبعادها يقول أحد المفكرين: إن ضربة واحدة على الجذور خير من ألف ضربة على الأغصان، وهذا صحيح؛ لأنّنا حين نوهن الجذر، ونقلعه، فإنّنا نضمن موت ألوف الأغصان، ونضمن ألا تورق الشجرة من جديد، وهكذا فإن معالجة قضايانا ومشكلاتنا تحتاج إلى الضرب على الجذور، حتى نضمن الخلاص منها، لكن أين هي الجذور؟

في عالم الظواهر الحضارية والاجتماعية قد يكون الشيء سبباً في طور أو وضعية معينة، ويكون نتيجة في وضعية أخرى، وعلى سبيل المثال فإن الفقير كثيراً ما يمرض بسبب الظروف التي يعيش فيها؛ حيث تكون قدرته على العلاج الوقائي

معدومة، بل إنه يعاني من سوء التغذية، وقدرته على العيش في بيئة صحية تكون محدودة.. وفي هذه الحال فإن المرض يعد نتيجة لعدد من الأسباب، فإذا مرض الفقير فإن ما لديه من مال قليل ينفقه على معالجة نفسه مما ألمّ به، بل إنه قد يستدين ليقوم بذلك، وهكذا يصبح المرض في هذه الحالة سبباً في زيادة الفقر بعد أن كان الفقر سبباً في الإصابة بالمرض، لكن هذا النوع من التعقيد، وإن كان يدفعنا في اتجاه الانتباه والتدقيق،لا ينبغي أن يمنعنا من تحسين بصيرتنا في هذا الأمر. لا يخفى أن هذا التواصل العالمي عبر الإعلام ووسائل الاتصالات المختلفة قد أشعل جذوة الأسئلة المحيرة في أمر العرب والمسلمين: لماذا نحن متناحرون؟ ولماذا نحن متخلّفون؟ ولماذا نحن مستهدَفون؟ ولماذا ولماذا...؟

هذه الأسئلة قديمةجداً، وقد عقد عبد الرحمن الكواكبي مؤتمره المتخيَل والذي تحدث عنه في كتابه (أم القرى) من أجل توفير إجابات على تلك الأسئلة، وإن الوفود التي حضرت من أنحاء العالم الإسلامي حسب تخيله بحثت في أمرين اثنين:أسباب تخلف العالم الإسلامي وكيفية الخلاص من ذلك التخلف. ومن المؤسف أن ما قيل في ذلك المؤتمر قبل أكثر من قرن من اليوم، ما زال يُعاد ويُكرّر كثير منه إلى هذه الساعة، والسبب هو أننا لا نحاول التعمق في بحث أسباب الوجع الذي نشعر به.

إن الله -سبحانه وتعالى- قد متَّع الإنسان بالإرادة الحرة، وأتاح له إمكانية النظر إلى كل مفردات الوجود بصورة مستقلة، لكن الواقع يشهد أن الإنسان

يظل أسيراً - في أمور كثيرة- للبيئة التي يعيش فيها، وأسيراً لرغباته وشهواته، وأسيراً لحاجاته التي لا تعرف التوقف عند أي حدّ، ومن هنا فإن مساعدته على التخلص من مشكلاته يتطلب شيئاً أكثر من وعظه وإطلاعه على ما يجري. إنه يتطلب في الحقيقة نوعاً من الفهم الجيد للأسباب والظروف والمعطيات التي تجعل انغماس الإنسان في المشكلات أمراً سهلاً، أو لا بد منه، وحين نعرف ما أشرنا إليه، فإننا نستطيع أن نقول: إننا وضعنا أقدامنا على أول الطريق.

صور من فقه الأسباب (٢)

من المعروف في الفيزياء أن الشيء إذا تُرك وشأنه فإنه يُصاب بالتحلل الذاتي؛ وذلك لأن استمرار الشيء في أداء وظائفه ودوره واستمرارَه في الوجود يحتاج إلى شيء من الصيانة المستمرة، وإنما يحتاج إلى الصيانة لأن صفاته الذاتية المكونة له تفقد قدرتها على التماسك والبقاء بحكم الطبيعة التي فطره عليها الخالق -عز وجل-، أضف إلى هذا العواملَ الموجودة في المحيط، كعوامل التعرية- مثلاً- فالصخر يتغير شكله مع الأيام، وربما يتفتت بسبب ما يتعرض له من المطر والشمس والريح.وفي المجال الإنساني يحدث مثل ذلك أيضاً، ما دام كل شيء من حولنا يؤثر على نحوٍ ما فينا، وهو أيضاً يتغير، فلا بد في النهاية من أن نتأثر به، ونتغير وفق نوعية تأثيره، وهذه بعض الأمثلة

أ- شاب ذكي وألمعي تخرّج في الجامعة، وانخرط في العمل في وظيفة

من الوظائف، وكفَّ عن تزويد عقله بالمعارف الجديدة والمستجدة في تخصصه الذي درسه، ما المتوقع في شأن معارفه القديمة في ذلك التخصص؟ المتوقع هو أنه بعد عشرين سنة من التخرج ستكون تلك المعارف قد أُصيبت - في جزء كبيرمنها- بالبلى والتقادم، أرقام كثيرة تتغير بفعل البحث المستمر، ملاحظات عديدة تتوارد حول ذلك التخصص مما يتعلق بنشأته وتاريخه وصلاته بالتخصصات الأخرى، كما أن بعض القوانين والمسلّمات القديمة تصبح مع الأيام موضع تساؤل، أضف إلى هذا الموقفَ العام من ذلك التخصص؛ فقد يكون التخصص موضع تقدير من المجتمع، ثم يخسر تلك المكانة، ويحل محله تخصص آخر، كما حدث للطب العام؛ إذ إن من يحمل درجة البكالوريوس اليوم في إدارة الأعمال قد يتقاضى مرتباً يزيد مرتين على مرتب من يحمل شهادة (البكالوريوس) في الطب، وهكذا.. وسيجد ذلك الخرّيج نفسه بعد تلك المدة المتطاولة من الإعراض عن متابعة تخصصه - يتحدث في الهيكل العام للتخصص وفي عمومياته، وسيجد من يقول له من الخريجين الجدد بالفم الملآن: هذا كان في زمانكم، أما الآن فقد اختلف كل شيء.

ب- تقوم مجموعة من الناس بتشكيل جماعة دعوية، وتبذل جهداً كبيراً في إنجاز لوائحها ونظمها الداخلية وفي بيان أهدافها وتطلّعاتها، وبعد عشرين سنة أو ثلاثين يُصاب كل ذلك بالتحلل الذاتي، ويفقد الكثير من ألقه وإثارته، وربما الكثير من صوابه وملاءمته للواقع الجديد، وذلك لأن أي جماعة حين تنطلق تؤسس خططها الدعوية على ما لديها من إدراك لواجباتها وللواقع

الذي تعيش فيه، وأيضاً لما لديها من إمكانات وتوقّعات وطموحات، كما أنها تنظر إلى كل ذلك في إطار وعيها بالمشكلات والعقبات التي يمكن أن تواجهها في المستقبل.. لا ريب في أن وعيها لكل ذلك هو وعي جزئي؛ لأنه يقوم على رؤية أجزاء من الحقيقة؛ إذ لا يتمكن البشر في هذه الأمور من رؤية الحقيقة كاملة لعدد من الأسباب، كما أن كثيراً من المعطيات التي كانت موجودة وقت تأسيس الجماعة يطرأ عليه نوع من التطوّر، وبعد ثلاثين سنة من تأسيس الجماعة يشعر أفرادها أو النابهون منهم بأن أوضاع الجماعة ليست على ما يُرام، وأن عليها أن تجدد في كل أبنيتها الداخلية حتى تنسجم مع المعطيات الجديدة، وأحياناً قد تُحرم الجماعة من الأعداد الكافية من المتميزين، فلا ينتبه أحد إلى الحقيقة القائلة: إن ما نظّرناَ له في الماضي هو ظنيّ الصواب، وإن التغيرات التي حدثت خلال تلك المدة الطويلة توجب تنظيراً جديداً، وإلا فقدت الجماعة الكثير من فاعليتها وتأثيرها، وأحياناً قد تفقد حتى مبرّر وجودها والنتيجة هي ارتباك كبير في فهم أسباب ما يحدث لها، ولم تدرِ أن كثيراً من معاناتها يعود إلى القصور والتحلل الذاتي الذي أصابها بسبب تقاعسها عن التطوير المطلوب. في بعض الأحيان ينادي بعض الأعضاء بالتطوير لكنهم لا يفلحون؛ لأن قسماً من المتنفّذين في الجماعة صاروا يقدّسون قديمها، ويريدون له أن يستمرعلى أي حال، ومهما كانت النتائج، وبذلك تتحول الوسيلة إلى غاية، ويعطى الإذن للفوضى وانعدام الفاعلية بالاستمرار. قليلة جداً تلك الأشياء التي يمكن أن تستمر في كل الأزمنة والأمكنة دون الحاجة

إلى صياغة وتجديد وتطوير، لكن الناس يخافون من ذلك، وكأنهم يقومون بقفزة في الهواء! وسوف يمتلكون الجرأة عليه حين يكتشفون أن الجمود هو نوع من الموت المحقق.

صور من فقه الأسباب (٣)

إن أي إنسان يعيش في مجتمع يتعرض لتربية من نوع ما، ويخضع لأعراف ذلك المجتمع على نحو من الأنحاء، ويتشكل لديه بسبب من هذا وذاك إطار من المبادئ والقيم التي تحظى باحترامه والتزامه إلى حدود معينة، وللإنسان إلى جانب هذا حاجات ومصالح، يسعى إلى قضائها حتى يصون وجوده من التلف، ويحقق طموحاته وتطلعاته، ومن الواضح أن الناس يعملون في أغلب الأحيان على تحقيق مصالحهم في إطار مبادئهم، أي أنهم يحاولون عدم الخروج على المبادئ التي يؤمنون بها؛ لأنها تشكل في الحقيقة عُمُد وجودهم المعنوي لكن حين تصطدم مبادئهم مع مصالحهم، فإنهم حينئذ يتفرقون؛ فمنهم من يتنازل عن بعض مصالحه بغية بقائه منسجماً مع معتقداته وقيمه، ومنهم من يتنازل عن شيء من معتقداته بغية تحقيق المزيد من مصالحه، وقضاء

المزيد من حاجاته. ويدرك أولو النهى والعزيمة أنهم لا يستطيعون في معظم الأحيان تحقيق كل مصالحهم مع الرعاية التامة لمبادئهم، ولهذا فإنهم يوطِّنون أنفسهم على التضحية ببعض المكاسب من أجل البقاء على الطريق الصحيح.

حين تضع الإنسان في ظروف صعبة وقاسية، فإنك تدفعه دفعاً إلى إعادة ترتيب أولوياته، وإعادة قراءة مبادئه ومصالحه، ولا شك في أن هناك من يظل مستعداً للتضحية بمصالحه والتمسك الحرفي بقيمه ومبادئه، لكن من المؤسف أن هذا الصنف من الناس يظل قليلاً، أما أكثر الناس فإنهم ينجذبون على درجات مختلفة إلى قضاء حاجاتهم والمحافظة على مصالحهم، ونجد هذا المعنى في غير موضع من كتاب الله - تعالى- حيث يقول سبحانه:

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ (البقرة:٢٤٩)

يذكر بعض المفسرين أن أصحاب طالوت كانوا ثمانين ألفاً، فلما اشتد بهم الظمأ، ووجدوا الماء العذب أمامهم شرب منهم من النهر ستة وسبعون ألفاً، وهؤلاء الذين شربوا من النهر تفاوتوا في ذلك على قدر يقينهم، فشرب الكفار شرب الهيم (وهي الإبل التي أصابها داء فلا ترتوي من الماء) وشرب العاصون دون ذلك، وجاوز النهر معه أربعة آلاف رجل، فلما نظروا إلى جالوت

وجنوده، وكانوا مائة ألف مقاتل مدجج بالسلاح هابوهم، فرجع من الآلاف الأربعة ثلاثة آلاف وستمائة وبضعة وثمانون، وبقي معه ثلاثمائة وبضعة عشر.

قد تعرض الجيش لاختبارين قاسيين: اختبار الظمأ الشديد مع وجود الماء، واختبار مواجهة القلة القليلة للكثرة الكاثرة، فلم ينجح في الاختبار إلا ما يقرب من نصف في المئة! ونجد نحواً من ذلك في قول الله - جل وعلا -:

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ۚ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (الجمعة:١١). فقد أخرج الشيخان عن جابر قال: قدمت عير المدينة ورسول الله ﷺ يخطب فخرج الناس، وبقي اثنا عشر رجلاً، فنزلت الآية. وفي مسند أبي يعلى عن جابر قال: بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة، فقدمت عير إلى المدينة، فابتدرها أصحاب رسول الله ﷺ حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلاً فقال رسول الله ﷺ: "والذي نفسي بيده، لو تتابعتم حتى لم يبق منكم أحد لسال بكم الوادي ناراً" ونزلت الآية.

ويفيد بعض المفسرين أن قافلة لدحية الكلبي قدمت من الشام، فيها كل ما يحتاجه الناس من بر ودقيق وغيرهما، وكان في المدينة مجاعة وغلاء في الأسعار. ولا شك أن ما في القافلة لا يكفي كل أهل المدينة، فاندفع الناس إليها ليحصلوا على ما هو ضروري بالنسبة إليهم

إن اليهود يضربون الحصار على أهل فلسطين عامة، وعلى (غزة) على نحو خاص، ويذيقونهم الجوع، ويحرمونهم من ضروريات الحياة حتى يعيدوا

ترتيب أولوياتهم، ويتخلوا عن الدفاع عن أرضهم، وحتى يلجئوهم إلى منطقة الخيارات الصعبة والبدائل المرة، وعلينا ألاّ نسمح لهم بذلك من خلال الوقوف إلى جانب إخواننا بعزيمة وصلابة؛ والله غالب على أمره.

صور من فقه الأسباب (٤)

ما زلنا نحاول اكتشاف الأسباب الكامنة خلف بعض الظواهر الأخلاقية والسلوكية والحضارية، وذلك لأن فهم أسباب أي ظاهرة على نحو جيد يشكِّل الخطوة الأولى على طريق التعامل معها، وأودّ أن أتحدث اليوم عن بعض الظواهر المتعلقة بالمرأة مع محاولة الوقوف على أسبابها، وهي في الحقيقة كثيرة، أعرض هنا لشيء منها:

١. يُلاحظ المرء كثرة الدراسات التي تتحدث عن أسباب الطلاق، كما يلاحظ أن كثيراً من تلك الدراسات يشير إلى أن صمت الرجل وقلة كلامه مع زوجته، من بين الأسباب التي تسهم في تفكيك الحياة الزوجية، وهذا ملموس ومشاهد بقوة، هناك إحصائية تقول: إن الرجل ينطق - وسطياً- بنحو ثمانية آلاف كلمة في اليوم، على حين أن المرأة تنطق بنحو ثلاثة عشر ألف كلمة في اليوم،

ولهذا فإن طاقتها الكلامية تتبدّد سدى إذا لم يوجد الرجل الذي يستمع إليها، ويتفاعل مع كلامها، ويغريها بالمزيد من الكلام! أضف إلى هذا فإن كون معظم النساء هنَّ ربات بيوت، ومعظم الرجال يعملون خارج المنزل، فإن المرأة ترى فيما يحدّثها به الرجل عن عمله، وعما رآه وسمعه خارج المنزل.. نافذة مهمة على العالم الخارجي، وعلى الرجل أن يترك تلك النافذة دائماً مفتوحة. المرأة أيضاً تخاف من صمت الرجل؛ فهي تخشى أن يكون صمته بسبب شروده عنها وانصراف اهتمامه إلى غيرها، وبالمناسبة فإن الزوجة تعدّ كل امرأة في الدنيا منافسة لها! والمرأة تحمل بين جوانحها الكثير من النبل والشفقة على زوجها، وحين تراه صامتاً فإنها كثيراً ما تفسِّر صمته بهمٍّ استولى عليه بسبب متاعب في عمله أو كساد في تجارته.. ويمكن أن نضيف إلى كل ذلك شيئاً مهماً، هو أن المرأة تستمتع بكلام الرجل، وقد أثبتت الأحوال المشاهدة أن كثيراً من الفتيات وقعن في شباك بعض الشباب المنحرفين بسبب قدرتهم على إسماعهن الكلام المعسول.. الدرس الذي يجب أن نخرج به هو أن على الرجل أن يدبِّر نفسه، ويحاول أن يكون مستعداً للتحدث في الكثير من الموضوعات، وإن كانت تلك الموضوعات غير مهمة بالنسبة إليه، فهي مهمة بالنسبة إلى زوجته. ٢. يُلاحظ أن الناس كلما درجوا في سُلَّم الحضارة وترسّخت أقدامهم في الحياة المتمدنة اشتد نفوذ المرأة، وازداد تأثيرها في الحياة العامة، وهذا ملموس إلى درجة يصح معها القول: إن روح الحضارة أنثى، وهكذا فنفوذ المرأة في المدينة بوصفها مركزاً حضارياً أقوى من نفوذها في القرية، ونفوذها

في القرية أقوى من نفوذها في البادية. وقد جرت عادة أهل البادية باتهام أهل المدينة بضعف الشخصية والتبعية لنسائهم والخوف منهن، والأمر ليس كذلك، فلو أن مئة شخص من أهل البادية سكنوا في حي فاخر من أحياء إحدى العواصم لصار موقفهم من نسائهم بعد عشرين سنة لا يختلف عن موقف أهل المدن. إذا تساءلنا: لماذا كان نفوذ المرأة في المدينة أقوى، فإن الجواب قد يكون في أن الناس إذا استوطنوا المدن تذوقوا طعم الرفاهية، وصارت جزءاً من مكتسباتهم التي يصعب عليهم التنازل عنها، والمرأة بالنسبة إلى الرجل من جملة الأشياء التي يترفّه بها، لكن من طبيعة المرأة أنك لا تستطيع أن تترفه بها إلا إذا رفَّهتها، ومن هنا نقول: إن زواج النبي ﷺ بذلك العدد من النساء لم يكن من أجل الرفاهية، وإنما لأسباب أخرى، والدليل على ذلك أنه لم يقم بترفيههن، وحين طلبن التوسع في النفقة خيَّرهن ﷺ بين الطلاق وبين الصبر معه على الحالة المعهودة. الترفّه بالمرأة إذن يتطلب ترفيهها، وإن تنفيذ طلباتها وتحقيق رغباتها هو جزء من ترفيهها. ونلاحظ في هذا السياق أن تعدد الزوجات في المدن أقل من القرى، وأقل من البادية، وذلك بسبب قوة نفوذ المرأة في المدينة، وهذه الملاحظة لها شذوذات مؤقتة، تُلاحظ في المراحل الانتقالية من حياة الأمم، ومع أن الله تعالى- شرع التعدد لحِكم بالغة وفوائد ملموسة، إلا أن تنامي نفوذ المرأة في المدن قد أدّى إلى إنشاء عرف اجتماعي قاسٍ جداً في الكثير من البلدان تجاه من يتزوج زوجة ثانية أو ثالثة، بل إن الناس في بعض البلدان الإسلامية قد تنشأ بينهم وبين المعدِّد جفوة لا تنشأ

بينهم وبين الزاني، وهذا شيء غير مفهوم ولا مقبول! وإلى جانب مسألة التعدد وارتباطها برفاهية المرأة ونفوذها هناك مسألة الإنجاب، فنحن نشاهد كذلك أن حجم الأسر في المدن يتجه إلى التقلص شيئاً فشيئاً، وكلما أمعن الناس في التحضر قلّ عدد الأطفال في أسرهم، وهذا مرتبط أيضاً بتذوق طعم الرفاهية؛ فكثرة الأولاد تشكل عبئاً على المرأة، وتتطلب منها الكثير من التعب والجهد، كما أن الناس في المدن لا يرون المسوّغات التي يراها أهل البادية لكثرة النسل، وهذا أدى إلى مشكلة خطيرة، وهي تَعَمُّق الفوارق الطبقية؛ إذ تجد من هو قادر على التربية والتعليم والإنفاق ممسكاً عن الإنجاب، وترى كثرة الأولاد عند من لا يجد قوت يومه، والله المستعان في كل حال.

صور من فقه الأسباب (٥)

نحن بني الإنسان مفطورون على الاستكثار من الخير، حيث إننا نتطلع دائماً إلى الحصول على أكبر قدر ممكن من كل خير وأجود شيء من كل مرغوب، لكن نيل الأشياء لا يكون بالتمني، وإلا لم يكن هناك أي مشكلة. تلفت نظري دائماً العلاقة بين (الكم) و(الكيف) أو (الحجم) و(النوعية) وأحاول فهم تلك العلاقة وتحليلها وانعكاساتها، والذي يظهر لي أن جوهر تلك العلاقة يقوم على الاطراد العكسي أي أن تحسين النوعية يتطلب تقليل الحجم، والإفراط في الكم والحجم يكون على حساب الكيف والجودة والنوعية، والسبب في هذا هو أن إنتاج الكم يحتاج إلى طاقة وإمكانية، كما أن تجويد النوعية وتحسينها يحتاج كذلك إلى طاقة وإمكانية، وبما أن طاقاتنا وإمكاناتنا - مهما عظمت- هي في النهاية محدودة، فإننا نجد أنفسنا مخيَّرين بين توجيهها إلى (الكم)، وتوجيهها إلى

(الكيف)، وهذا معروف على نحو جيد لدى الاقتصاديين، حيث إن هناك دولاً مثل (الصين) و(كوريا) تعمد إلى إنتاج الكثير من السلع ذات الجودة المنخفضة، وهي تحقق أرباحها من وراء إغراق الأسواق بالسلع الرخيصة، وهناك دول مثل (ألمانيا) و(السويد) ومعظم الدول الغربية تعتمد أسلوب الإنتاج عالي الجودة والأقل كماً، وتحقق الأرباح الطائلة عن طريق الأسعار المرتفعة لمنتجاتها، فهي لا تنتج الكثير، لكنها تنتج ما تنتجه بمواصفات عالية جداً. الآن دعونا نقدم بعض الصور التطبيقية لتفسيرنا لهذه العلاقة:

١- تدرك إدارات الشركات الكبرى مأزق تضخم الحجم، وأنه قد يعوق تحقيق نمط إداري رفيع، ولهذا فإنها تعمد إلى تقسيم الشركة إلى أقسام عديدة، وتحاول جعل كل قسم مستقلاً في أمور كثيرة، وتحاول التخلص من بعض المنتجات غير المربحة حتى تخفف من حجم أجهزة الإنتاج، وكل ذلك لإيمانها بأن إدارة الهياكل الكبيرة تنطوي على الكثير من المشكلات، ويكون تحقيق الجودة العالية فيها أمراً صعباً. هذا الكلام ينطبق على الحكومات أيضاً، حيث صار من الواضح أن تضخُّم الأجهزة الإدارية لأي دولة يكون مدعاة لترهلها وضعف أدائها، كما أنه يُفسح الطريق لفساد عريض، وذلك بسبب عدم تمكن العناصر الخيرة من فرض سيطرتها وبسبب صعوبة الحصول على أعداد كبيرة من الموظفين الأكفاء والمستقيمين، ومن هنا فإن الرؤية الإسلامية في هذا الشأن تقوم على أن الدولة لا تدير، ولا تنتج إلا ما يعجز الناس عن إدارة إنتاجه. ولهذا فإن الذين يطلبون من الحكومات المزيد من الخدمات يدفعونها دفعاً إلى أن

تطلب المزيد من الصلاحيات، وأن تعمل على توظيف المزيد من الناس، وهذا يؤدي إلى تضخم الأجهزة الحكومية، وهذا يتولّد عنه الكثير من الفساد، وإن تجربة الدول الاشتراكية واضحة جداً في هذا الشأن.

٢- يقضي طالب الدراسات العليا في إعداد رسالة (الدكتوراه) وقتاً طويلاً قد يصل إلى خمس سنوات، وبعد تلك المدة الطويلة قد يكون البحث عبارة عن مئتي صفحة، وهذا لأن الباحث سوف يناقَش في كل كلمة كتبها، كما أنه يسعى عادة إلى الوصول إلى نتائج ومعطيات مبتكرة، إذن هو يصرف جهده في الحصول على (النوعية)، وهي تكون دائماً على حساب (الكم) أما كتّاب (الموسوعات) فإن لهم شأناً آخر حيث إنهم يتعاملون مع عدد كبير من المواد العلمية المشتتة والمتباعدة، لهذا فإنهم يجدون أنفسهم عاجزين عن تحقيق تلك المواد وغربلتها من الأوهام والأفكار غير المختبَرة.. ولهذا فإن حسّ إنجاز الكم، سيظل مسيطراً عليهم إلى حد بعيد، ومن ثم فإنك تجد الواحد منهم قد يكتب ثلاثة آلاف صفحة في خمس سنوات.

في مجال التربية نجد الصورة نفسها، حيث إن طاقة الوالدين على الجلوس مع الأبناء ومتابعتهم وحل مشكلاتهم هي طبعاً محدودة، فإذا قلنا: إن الأب يستطيع تخصيص ساعة في اليوم للجلوس مع أبنائه، وإن الأم تملك ثلاث ساعات لذلك، فإن من الطبيعي أن يتلقى ثلاثة أطفال متقاربين في أعمارهم من رعاية الأبوين واهتمامهما ضعف ما يتلقاه ستة أطفال من أبويهم؛ فالكم لا يكون إلا على حساب الكيف، والعكس صحيح، ولك أن تقول مثل هذا في التعليم،

حيث إن طلاب الفصل حين يكون عددهم خمسة عشر طالباً، فإنهم يتلقون من رعاية معلميهم ومتابعتهم ضِعف ما يتلقاه طلاب فصل مكوَّن من ثلاثين طالباً. هذا هو التحليل المنطقي، وقد نجد ما يخالف هذا حيث نرى في بعض الأحيان سبعة من الشباب الممتازين الذين نشأوا في أسرة واحدة، ونرى إلى جانب ذلك أسرة لم ترزق إلا بولدين، ومع ذلك أخفقت في تربيتهم، وهذا لا يعود إلى مسألة تقسيم جهد الأبوين على الأطفال، وإنما يعود إلى عوامل أخرى مثل توفيق الله - تعالى- أو العامل المادي أو البيئة العامة.

في حديث القصعة: (يوشك أن تداعى عليكم الأمم...) دلالة واضحة على أن مشكلة أمة الإسلام في بعض مراحل تاريخها -ومنها مرحلتنا هذه - لا تكون في الكم، وإنما في الكيف، وهذا ملموس جداً، فاليهود في العالم كله عبارة عن خمسة عشر مليوناً (أي أقل من سكان القاهرة) ومع ذلك فإن تأثيرهم في السياسة العالمية والاقتصاد العالمي أكبر من تأثير مليار ونصف من المسلمين، كما أن العلماء اليهود الذين حصلوا على جائزة (نوبل) أكثر من العلماء المسلمين، أليس في هذا ما يدعو إلى التأمل؟

وراثة الاهتمامات

لو كان كل جيل يرث عن الجيل السابق فضائله واهتماماته كما يرث طول القامة ولون البشرة لهان الخطب، حيث يكون على البشرية آنذاك أن تبذل جهوداً استثنائية في إصلاح حال جيل من الأجيال، ثم ترتاح مطمئنة كي تستمتع بثمار إصلاحها قروناً متطاولة، لكن الأمر مع الأسف ليس كذلك، حيث إن على كل جيل في كل مكان من الأرض أن يبدأ من الصفر، ويتعلم الكثير من الأشياء كما فعلت الأجيال السابقة. إن الذي أثار هذه الفكرة في ذهني ما يطرق سمعي كل يوم من تلاوم في مسألة إعراض الأجيال الجديدة عن القراءة واصطحاب الكتاب، وصار من المألوف أن يردد المتلاومون العبارة المشهورة: (أمة اقرأ لم تعد تقرأ) حيث يظن كثير من الناس أن كون (اقرأ) هي أول كلمة في أول آية في أول سورة نزلت على نبينا ﷺ ينبغي أن يكون كافياً لإقبال المسلمين على القراءة،

وكأننا بهذا نتجاهل الحقيقة الراسخة والناطقة بعجز المبادئ عن العمل في تغيير النفوس والسلوك ما لم يتم توفير الظروف والمناخات الملائمة. إن المبادئ لا تعمل في فراغ، بل تحتاج إلى العديد من الشروط، وهذا هو التحدي الذي واجهته البشرية على مدار التاريخ على صعيد تمثُّل الفضائل والكف عن الرذائل. يظن كثير من الناس أن انتشار المدارس والجامعات سيكون كافياً لإقبال الأجيال الجديدة على القراءة، ويظن كثير من الناس أيضاً أن مجرد وجود مكتبة في كل منزل سينتج عنه بالضرورة جيل يحتفي بالقراءة، ويحتفل بالكتاب، وهذا كله غير صحيح، حيث ثبت أن التعليم الرديء في أسلوبه والمتدني في مستواه يولِّد في نفوس الطلاب نوعاً من الجفاء للقراءة والكتابة، كما ثبت أن الذي يثير شهية الطفل للقراءة ليس وجود جدران مزدحمة بأرفف الكتب، وإنما ما يشاهده لدى أسرته من فعل القراءة والمطالعة الفعلية في الكتب، ومن هنا يمكن أن يزول استغرابنا من عدم اهتمام صغارنا بالاطلاع على الكتب. إن الأطفال لا يقرؤون لأن الكبار لا يقرؤون، وفي الدول التي يُقبل صغارها على المطالعة تجد أن ذلك هو شأن الكبار أيضاً، ومن المؤسف أننا اليوم نتداول الكثير من الأرقام الدالة على إعراض العربي عن القراءة، تلك الأرقام التي تبث اليأس والإحباط على مقدار ما فيها من مبالغة، وإلا فمن الذي يمكنه أن يصدق أن دار نشر فرنسية واحدة تستهلك من الورق في طباعة الكتب ما يساوي استهلاك العالم العربي برمته ؟! ومن الذي يمكنه أن يصدق أن كل ثلاث مئة ألف عربي يقرؤون كتاباً واحداً في السنة ؟! إن هذا جلد مبالغ فيه

للذات، ونشر قوى للشعور بالدونية، لكن إذا تجاوزنا هذه الحيثية فإننا لا نرتاب في أن وضع القراءة لدينا هو دون المستوى العالمي، وهو لا يبعث على الارتياح أو التفاؤل، والدليل على هذا ليس الأرقام المخيبة للآمال، وإنما ضآلة الجهود التي تبذلها الأسر في ترسيخ عادة القراءة في نفوس أبنائها. أنا أتمنى أن يطَّلع كل رب أسرة لدينا على الجهود التي تبذلها الأم في أوربا وأمريكا.. من أجل جعل الطفل يفتح الكتاب يومياً، وجعله يلح على أبويه كي يذهبا به إلى المكتبة، إنها جهود كبيرة للغاية، وإن علينا أن نستفيد منها قدر الطاقة. حتى يرث أبناؤنا عنا حب القراءة، فإن علينا أن نمارس القراءة أما مهم بكثافة، ثم إن علينا أن نبحث عن المداخل والآليات والأساليب التي تساعدنا على نقل اهتماماتنا إليهم، وإلا فإن الوضع سوف يستمر في التدهور مع تطور المنتجات التقنية المغرية بالمزيد من اللهو واللعب.

الوعي الغائم

على مدار التاريخ كان الإنسان منخرطاً في عمليات استكشاف تدريجي لنفسه ومحيطه، وعلى مدار التاريخ أيضاً كانت لدى الإنسان أشواق عارمة لمعرفة ما جرى في الماضي ولهفة شديدة إلى ما يمكن أن يحدث في المستقبل، وما هذا إلا لأن المعرفة هي الغرام الأول والأكبر في حياة بني البشر، لكن المؤسف أن الإنسان لا يحصل من وراء كل محاولاته إلا على معارف جزئية ونسبية، إلا ما أتحفه به الرب الكريم العليم عن طريق الوحي، وما أتحفه به عن طريق السنن المبثوثة في الكون. وإذا تساءلنا عن أسباب ذلك وكيفية التعامل معه أمكننا أن نقول الآتي:

إننا حين نحاول فهم ما نحن عليه من صلاح وفساد ونجاح وإخفاق وإقبال وإدبار..على المستوى الشخصي وعلى المستوى العام- نلجأ إلى ما لدينا من

تعريفات ومفاهيم وخبرات متصلة بالصلاح والفساد... وهذه كلها نسبية، فالشخص قد يرى أنه لم يحقق سوى القليل من طموحاته، وأنه لم يستثمر إلا القليل من إمكاناته، لكن الآخرين ينظرون إليه على أنه من أعظم الناجحين، وقد ينظر إليه بعض خصومه ومناوئيه على أنه شخص عادي أو أقل من عادي، وهذا كله بسبب تفاوت تعريفنا للنجاح والإخفاق وتفاوت رؤيتنا للإمكانات التي نتمتع بها، ويتمتع بها الآخرون.

نحن أيضاً نلجأ من أجل فهم ما يجري إلى المعلومات والأرقام والأخبار المتوفرة، ولا يخفى أننا سنجد أن منها ما هو واضح ودقيق وصادق، ومنها ما هو مكذوب ومجمل وغامض، وما أعرفه أنا عن الحادثة الفلانية، قد لا تعرفه أنت، والعكس صحيح، وذلك لأنه ليس هناك من هو مطلع على كل التفاصيل سوى الرب – جل وعلا- ولا يختلف عن هذا اعتمادنا على المقارنة، في فهم الأوضاع الخاصة والعامة، ومع أن المقارنة وسيلة من أعظم الوسائل التي يستخدمها الإنسان في الفهم والإدراك والتحليل، لكن المقارنة تحيل على ضرورة معرفة ما عليه أولئك الذين نقارن أنفسنا بهم، وهذا أيضاً مشكل لأنه إذا كانت معرفتنا بأحوالنا غائمة وناقصة، فإن معرفتنا بأحوال الآخرين ستكون أشد نقصاً وأعظم غموضاً. ونظراً لكل هذا فإنه لا يكاد يمر مجلس دون أن يختلف الناس حول بعض الموضوعات المطروحة بقطع النظر عن المستوى الإدراكي والمعرفي للموجودين.

السؤال الذي يطرح نفسه بناء على هذه المعطيات هو التالي: ما الموقف

الموضوعي من كل ما ذكرناه، وكيف نتلافى النقص الذي أشرنا إليه؟. في مقاربة أوليه للجواب أقول باختصار:

أ- لا سبيل إلى معرفة تامة وكاملة بأي ظاهرة كبرى، بل لا سبيل إلى معرفة تامة بأنفسنا، وذلك بسبب قصور التعريفات والمفاهيم التي نستخدمها في ذلك، والتي تنبع أساساً من قصور النظام اللغوي نفسه،ولأن من سنن الله في الخلق أن يظل في كل الظواهر الكبرى عنصر غيبي استأثر الله بعلمه، وهذا يتطلب منا أن نتواضع أكثر، وأن نحاول أن نتعلم بعزيمة أمضى من أجل فهم أفضل.

ب- تحسين مستوى استيعابنا للغة واستخدامنا لها، لأن اللغة هي أداة الفهم،ومن المؤسف أن الأجيال الجديدة تشهد تراجعاً مريعاً في هذا الشأن!!.

جـ - إذا كانت معرفتنا بأنفسنا وبأوضاعنا متوقفة على فهم الآخرين الموافقين والمناوئين منهم والأعداء، فإن علينا أن نحاول فهمهم على ما هم عليه بقطع النظر عن مواقفهم منا. علينا – بعبارة أخرى- أن لا نشوِّه الخصوم، وأن نكون عادلين في تصوير أوضاعهم، حيث إنهم سيكونون المرايا التي سنرى فيها أنفسنا.

د- علينا دائماً العمل على تحرير التعريفات والمصطلحات لأنها بوابات الإدراك وأدواته، وعلينا إلى جانب هذا تحويل أكبر قدر ممكن من المعارف إلى (أرقام) فالعقل يرتبك ارتباكاً شديداً في فهم الصفات والكيوف، ويبدي براعة عظيمة في فهم ما كان من قبيل (الكم) كما هو الشأن في الأحجام والأوزان، وكل ما تستخدم فيه الأرقام.

الفهم الصحيح يشكِّل البداية الصحيحة للوصول إلى علاجات ناجحة لكل ما نعاني منه من أزمات ومشكلات.

تحول القوة

فُطر الإنسان على الميل إلى الدعة والسكون، وحب الأشياء الساكنة، ومن هنا فإن لديه رغبة دفينة في أن يظل كل شيء على ما هو عليه، فالجديد طالما كان مظنة للتحديات والمفاجآت غير السارة، ثم إن الجديد يحتاج دائماً إلى أن نتكيف معه، والتكيف يعني بذل جهد إضافي والتنازل عن بعض المكاسب، وهذا كله ليس مرغوباً عند معظم الناس، لكن التجديدات التقنية والتغيرات الفيزيائية والكيميائية، تؤدي إلى تغييرات واسعة المدى في الأفكار والعلاقات ومواضيع التمركز الدولي والحضاري، وينتج من كل ذلك تحول في ركائز القوة والتقدم والمعاصرة، وهذا الموضوع ذو ذيول طويلة، ولهذا فسأقدم فيه إشارات سريعة جداً:

١ـ كان رأسمال الدول عبارة عن أشياء ملموسة ومرئية مثل مساحات الأرض

الواسعة والمياه العذبة والغابات والثروات المعدنية... ومع أنه يظل لهذه العناصر قيمة مهمة إلا أن القوة الجديدة والعاتية تكمن اليوم فيما تملكه الدولة من أفكار ومفاهيم واتجاهات وأخلاق ونظم ومؤسسات معرفية وتقنية متقدمة، وإن الدول الفقيرة في هذه الأمور سوف تشكو في المستقبل القريب من الفاقة مهما كان ماتملكه من رأس المال القديم كبيراً وعظيماً.

٢- كان الناس في الماضي ينظرون إلى الحكومات على أنها المالكة لكل شيء والمسؤولة أيضاً عن كل شيء، وقد كانت هذه النظرة صحيحة في ظل هشاشة المجتمعات وتواضع الثروات والمقدرات المملوكة للقطاع الخاص، وهذه الوضعية آخذة بالتحول حيث أخذ العالم يعوّل أكثر فأكثر في مسألة الإصلاح والتغيير على مؤسسات المجتمع المدني التي تملك إمكانات هائلة وتعمل على كل صعيد، أما على الصعيد الاقتصادي فإن في العالم اليوم شركات عملاقة تملك الواحدة منها من المال ما يزيد على ميزانيات عشرين دولة من الدول الفقيرة ونحن ما زلنا في بداية الطريق حتى إنه يمكن القول: إنه في المستقبل لن يكون هناك دول عظمى بل شركات ذات صبغة إمبراطورية.

٣- لو عدنا إلى الوضعية الإنسانية في السابق بما تشتمل عليه من مشاعر وأخلاق وعلاقات، فإننا سنجد أن أدبياتنا على صعيد التربية الذاتية وتربية الأبناء كانت تؤكد على كبح جماح النفس وحرمانها من مرغوباتها وعلى ضبط الولد وتطويعه للعادات والتقاليد السائدة، وقد تحول هذا اليوم إلى العمل على تقوية الإرادة والوازع الداخلي وتوفير البيئة التي تحفز على الاستقامة

والإنجاز. ونجد على صعيد العلاقات العامة أن الذي كان سائداً هو الخوف والحذر والانغلاق والشك، أما اليوم فإن كثيراً من الأدبيات العالمية يركز على الثقة بالآخرين وعلى الانفتاح عليهم والإستفادة من خبراتهم.

هذا التحول في أساليب صناعة القوة وأساليب توظيفها يتطلب منّا جميعاً أن نغير في تصوراتنا وفي خطط عملنا المستقبلية، وإلا وجدنا أننا نتحرك كثيراً، وننتج قليلاً،ووجدنا أننا على كثرة ما بأيدينا من إمكانات نعيش على هامش الحياة، هذا ما علينا أن نتأمل فيه على نحو جيد، ونوسع مدلولاته ومراميه.

فهرس الموضوعات